سيدي الطفـــل

رابندرات طاغور

رابندرات طاغور (1861- 1941) ، شاعر وموسيقار هندي ولـد فـي كالكتّا من عائلة عريقة. تثقف في أوروبا ثم عاد الى الهند وأسـس جامعـة فـي البنغال. نال جائزة نوبل عام 1913 وخلع عليه الملك جورج عـام 1915 وسـام الفرسان. ونال صيتا عالميا كفيلسوف ومرب وشاعر [انتخبت هذه القـصة مـن كتابه " الأحجار الجائعة وقصص أخرى"].

* * *

كان ريشاران في الثانية عشرة من عمره عندما التحق بخدمة سيده. وكان ينتمي الى نفس الطائفة التي ينتمي اليها فاوكل اليه رعاية ابن مـولاه. وبمـرور الزمن هجر الصبي ذراع ريشاران ليذهب الى المدرسة، ومنها انتقل الى الكليـة، ومن الكلية انتسب الى سلك القضاء. وكان ريشاران تابعه الوحيد يلازمـه كظلـه حتى زواجه.

ولكن عندما عبرت الدار سيدة، سلبته ما كان له من نفوذ فيما مضى، غير أنه عوض عنه بما عزاه. فلقد ولد لأونوكل طفل وما لبث ريشاران أن اسـتحوذ عليه برعايته الفياضة. وكثيرا ما راح يضم الطفل بين ذراعيه يشد عليه الوثـاق ويناديه بنغية الأطفال المضحكة ويقرب منه وجهه ثم يرتد عنه مكشّرا.

وما لبث الطفل أن أخذ يحبو ويجتاز العتبة. وما أن يتبعه ريشاران ليمسك به حتى يرسل الزعقات وهو يضحك بخبث ويحاول النجاة. وكم كـان ريـشاران يدهش للمهارة الفائقة وحسن التصرف اللذين يبديانهما الطفل حين يلاحق. فيقـول لسيدته وفي عينيه وميض مهابة وغموض:

- "ان ابنك سيغدو قاضيا ذات يوم ".

وتتالت العجائب في أوانها. كان درجان الطفل لريشاران حدث جليل فـي تاريخ الإنسانية . وما كان أشد فرحه إذ أخذ الطفل يدعو والده با- با وأمه ما- ما

وريشاران شان- نا، فراح ريشاران يفيض بالحديث عن هذا الأمـر للـدنى فـي غبطة لاتحد.

وكان على ريشاران فيما بعد أن يظهر نبوغه في مجالات أخرى. فكـان عليه، مثلا أن يقوم بدور الحصان، ويمسك العنان بين أسنانه ويشب بقدميه. وكان عليه أن يصارع الصغير الذي في عهدته، فإذا لم يستطع بحيلة المـصارعين، أن ينقلب على قفاه هزيما، باتت جلجلة عويل الطفل مؤكدة..

وفي أثناء ذلك نقل أونوكل الى مقاطعة على ضفاف البادما. وفي طريقـه الى كلكتّا ابتاع لابنه دراجة صغيرة، واشترى صدارا مـن الـساتان الأصـفر ، وغطاء للرأس مخرما بخيوط الذهب وأساور وخلاخيل ذهبية.ويكلّف ريشاران أن يحلّي بها الصغير كلما قاموا بنزهة فيفعل مزدهيا فخورا..

وجاء فصل الأمطار، وأخذ الوابل يغدق يوما بعد يوم، وطفقت الـسيول، وكأفعى هائلة ابتلع النهر الجائع القرى وحقول القمح ، وغمر الفيضان الحـشائش الطويلة البرية النامية على الضفاف الرملية. وكان للضفاف وهي تجرف اصطفاق عميق، وللتيار المتدفق زئير يسمع رجعه من بعيد، وللزبد العرام تدافع ينبئ عـن سرعة النهر الهائلة.

وفي يوم بعيد الظهر وقد هدأت ثورة الأمطار وتكللـت الـسماء بـبعض السحب والنهار بارد متلألئ أبى سيد ريشاران الصغير المستبد الرأي أن يمكـث في المنزل فتسلّق الدراجة، ووجد ريشاران نفسه مجبرا على أن يدفعه ببطء بـين العرائش حتى بلغا حقول الأرز على ضفاف النهر. وأفرجت الغيوم من بعيد فوق الجانب الغربي من المياه. وتجلت الشمس عند الغروب في بهائها المتوهج الأخّـاذ وهي تميس في موكب صامت. وفجأة خلال السكون المهيب ارتفع صوت الطفـل وهو يشير بإصبعه: "تشان- نا.. زهرة حلوة.."

غير بعيد، على المنبسط الموحل، كانت شجرة كاداميا في كامل نوارهـا. ونظر اليها السيد الطفل بعينين نهمتين ففهم ريشاران ما يعني. فمن عهـد قريـب صنع ريشاران من مثل تلك الزهور عربة صغيرة سعد الطفل في جرهـا بخـيط

طوال النهار فأعفي ريشاران من العنان.. وهكذا ترقّى من مرتبة حـصان الـى سائس خيل.

ولكن ريشاران لم يرغب أصيل ذلك اليوم أن يخـوض الأوحـال حتـى ركبتيه ليبلغ الزهور، فأشار بإصبعه بسرعة نحو الاتجاه المعاكس وهتف: "أنظـر أيها الطفل أنظر! أنظر الى العصفور ".

وفي خلال ما أحدث من أجيج غريب راح يـدفع الدراجـة بعيـدا عـن الشجرة. ولكن طفلا، مقدرا له أن يصبح قاضيا، لا يستطاع صرفه عـن غايتـه بسهولة. والى هذا لم يكن هناك ما يجذب ناظريـه. فلـم يقـو ريـشاران علـى الاستمرار بالتظاهر في وجود عصفور وهمي.

ركب السيد الصغير رأسه فاستنفذ صبر ريشاران حتى قال أخيرا: "حسنا أيها الطفل، ابق هادئا في عربتك وسآتيك بالزهرة الجميلة. وإياك أن تقترب مـن المياه".

واذ قال هذا، عرى ساقيه حتى الركبتين وخاض الطـين النـزز نحـو الشجرة.

وما كاد ريشاران يبتعد حتى اندفع السيد الصغير يسابق الريح نحو الميـاه الممنوعة. راعه النهر في تدفقه وارتشاش مياهه وقرقرته. وكان يبـدو وكأنمـا الموجات العاصية نفسها مولّية هربا من ريشاران أعظم في ضحكة كأنها صادرة عن ألف طفل. وتململ قلب الطفل الإنساني وقد أثاره مشهد خبثها، فانفلـت مـن دراجته ودرج نحو النهر. وفي طريقه التقط عودا صغيرا، وانحنى فوق ضـفاف النهر متظاهرا بالإصطياد. وكان يبدو كأنما جنيات النهر الساحرة تدعوه بأصواتها الغامضة ليشاطرها اللعب.

كان ريشاران قد اقتطف عددا من زهور الشجرة ضمها في طرف ثوبـه وعاد تكلل وجهه الإبتسامات. ولكن عندما بلغ الدراجة لم يكن من أحـد هنـاك. فنظر حواليه فلم يظفر بأحد. واستدار نحو العربة فما صادف أحدا. وتجمد الدم في

شراييه في تلك اللحظة الرهيبة، ودار اللون أمام ناظريه كسحابة مكفهرة وأصدر صيحة نفّاذة من أعماق قلبه الكسير.

-"سيدي، سيدي، يا سيدي الصغير".

فلم يرد عليه صوت "تشان- نا". ولم يضحك طفل ضحكة خبيثة. ولم يرحب بعودته زعقة طفل جذل. لاشيء سوى النهر المندفع في ارتشاش مياهه وقرقرته كأن لا يدري بشيء وليس لديه متسع من الوقت ليبالي بحادثة تافهة كهذه:موت طفل!

واذ أسدف الليل أخذ القلق من سيدة ريشاران كل مأخذ فبعثت بالرجال ليبحثوا في كل الجهات.فانطلقوا وبأيديهم المشاعل حتى بلغوا ضفاف البادما. هناك وجدوا ريشاران مندفعا في الحقول كريح عاصفة ينادي بصيحة يائسة:

- "سيدي ، سيدي، يا سيدي الصغير!".

وعندما عادوا أخيرا بريشاران الى المنزل، ارتمى على قدمي سيدته فهزوه وانهالوا عليه يسألونه عن المكان الذي ترك فيهالطفل؛ ولكن كل ما استطاع أن يجيب به هو أنه لا يدري شيئا.

وبالرغم أن كل فرد اعتقد في قرارته أن البادما ابتلع الصبي، إلاّ أن شكّا بقي عالقا في الأذهان. إذ شوهدت جماعة من الغجر خارج القرية في عصر ذلك اليوم، وعلق بهم بعض الارتياب. أما الأم فانها ذهبت في فجيعتها مدى بعيدا حتى أنها اتهمت ريشاران نفسه بسرقة الطفل. فاستدعته قربها باستعطاف محزن وقالت:

- "ريشاران، أعد الي ولدي. أواه! أعد الي ولدي وخذ مني ما تريد من مال، ولكن أعد الي ولدي!"

وحاول أونوكل أن يعيد زوجته الى صوابها فتكف عن هذه الريبة الجائرة فقال: "لماذا بحق السماء يقترف جريمة كهذه؟" فما تجد الأم ما تجيب به سوى أن

الطفل كان مزينا بحلى ذهبية، ومن يدري؟ وكان من المستحيل عليه أن يتفاهم معها بعد ذلك..

عاد ريشاران الى قريته. ولم يكن حتى ذلك الوقت قد أنجب طفلا، وما كان من أمل في أن يولد له طفل. ولكن حدث قبل مضي عام أن زوجته أنجبت طفلا ثم ماتت. فغمر نفس ريشاران الحقد عند رؤية الطفل الجديد، ففي عقله الباطن كان الشك الحانق يخيل اليه أن الطفل جاء مغتصبا مقام السيد الصغير. وخيل اليه أيضا أنها إساءة لا تغتفر أن يسعد بطفل من صلبه بعد ما حدث لابن سيده.

ولولا أن تبنت الطفل أخت له أرملة ، لكان من المؤكد أن لا يعيش طويلا.

ولكن تغييرا طرأ على فكر ريشاران. حدث أمر عجيب حين ابتدأ الطفل يحبو، ويعبر العتبة والخبث يلتمع في وجهه، ولقد أظهر مهارة فائقة في هروبه محاولا النجاة. وكان صوته، ورنّة ضحكته ودموعه وإشاراته مثيلة لتلك التي كانت للسيد الصغير. وفي ذات يوم، بينما كان ريشاران يصغي الى عويله، دقّ قلبه عنيفا بين أضالعه، وخيل اليه أن السيد الصغير السابق يبكي في مكان ما في عالم الموت المجهول لأنه أضاع تشان- ناه!

وابتدأ فيلنا (وكان هذا هو الإسم الذي أطلقته أخت ريشاران على الطفل الجديد) بالكلام. تعلّم أن يقول با- بابا وما- ما بنغية الطفل. وما ان سمع ريشاران هذه العبارات المألوفة حتى استبان له السر الكتيم. ان السيد الصغير لم يقو على نبذ تشان- ناه، فعاد ليولد كرة أخرى في منزله.

كانت الشواهد التي عززت في نفس ريشاران ذلك الرأي لا تقبل الجدال. إذ لم تكن زوجته تملك من الصفات ما يخولها أن تلد طفلا في كهولتها. وأخذ الطفل الجديد يدرج، وينادي با- يا وما- ما، وما كان يعوزه من المؤهلات ما كان يطبع قاضي المستقبل.

وتذكر ريشاران فجأة الاتهام الرهيب الذي ساور الأم فهتف لنفسه وقد تملكته الدهشة: "آه ، كان قلب الإم على صواب . إنها علمت أنني سرقت طفلها". وحين وصل في تفكيره الى هذه النهاية غمره ندم لذيع لإهماله السابق.

ولم يلبث أن وهب ريشاران نفسه ، جسدا وروحا للطفل الجديد، وغدا له التابع الأمين. أخذ ينشئه كأنما هو ابن رجل ثري . واشترى له دراجة ، وصدارا من الساتان الأصفر وغطاء للرأس مطرزا بخيوط الذهب. وأذاب حلى زوجته المتوفاة وصنع له أساور وخلاخيل ذهبية. ورفض أن يسمح للطفل الصغير أن يلعب مع أحد الجيرة. وأصبح رفيقه الوحيد ليل نهار. وعندما بلغ الطفل سن الصبا، كان قد أفسده الدلال واعتاد ارتداء الملابس المترفة حتى غدا مغمزا لصبية القرية الذين أخذوا يلقبونه ب "صاحب السمو". أما المتقدمون في السن فكانوا يعتبرون تصرف ريشاران مع الصبي حمقا ليس بعده حمق.

وأخيرا آن الأوان للصبي أن يذهب الى المدرسة. فباع ريشاران قطعة الأرض الصغيرة التي يملكها وذهب الى كلكوتا. وهناك بعد عسر شديد استطاع أن يجد عملا كخادم، وأرسل بفيلنا الى المدرسة. ولم يأل جهدا في أن يهبه الثقافة الفضلى، وأثمن الثياب، وأحسن الأطعمة. بينما كان يعيش على حفنة من الأرز، هاتفا في سره:

- "آه! يا سيدي الصغير، يا سيدي الصغير العزيز، أحببتني كثيرا حتى عدت الى منزلي. ولن تقاسي أبدا من إهمالي".

ومرت اثنتا عشرة سنة على هذا المنوال. فتمكن الصبي من القراءة والكتابة. كان لامعا موفور الصحة وسيما، يبالغ في رعاية مظهره ويحرص على فرق شعره بعناية، ويميل الى الإسراف والترف ويبعثر المال ذات اليمين وذات الشمال. ولم يكن يستطيع أن يعتبر ريشاران والده تماما. فبالرغم من عواطف ريشاران الأبوية كان موسما بطباع الخدم. ولقد أقدم على خطأ إذ احتفظ بسر أبوته للغلام ولم يطلع عليها أحدا.

وفي دار الطلبة حيث كان فيلنا نزيلا اعتاد الطلبة أن يسخروا من طبـاع ريشاران الريفية وراح فيلنا يشاركهم عبثهم في غياب أبيه. ولكنهم فـي قـرارة قلوبهم كانوا يحبون الشيخ البريء الرقيق القلب ، وكان فيلنا مغرما بـه أيـضا. ولكنه، كما قلت من قبل، أحبه بروح من التعطف والتفضل.

وطعن ريشاران في السن فأخذ مخدومه يحصي عليه الأخطاء إذ رآه غير كفؤ للعمل. أهلك المسكين نفسه جوعا من أجل الصبي ، فوهنت صحته وما عـاد يقوى على القيام بعمله. وكثيرا ما كان ينسى ما يؤمر به وتبلّد ذهنه وثلـم حـده. ولكن مخدومه أبى إلاّ أن يطالبه بعمل تام وما كان ليطيق أعذاره. وكـان المـال الذي حصل عليه ريشاران من بيع أرضه قد نفذ، وراح الـصبي يـوالي تـذمره وشكواه من ثيابه ويطلب مزيدا من المال.

وأخيرا عزم ريشاران على أمر. فهجر العمل الذي كان يزاوله وتـرك لفيلنا بعض المال وقال له:

- "ان لدي عملا في منزلي في المدينة ولن يطول غيابي".

وقصد توا الى بارازيت حيث كان أونوكل حاكما هناك. وكانـت زوجـة أونوكل لايزال الحزن يرهدها إذ لم تهبها السماء طفلا آخر.

وذات يوم كان أونوكل مستلقيا إثر نهار طويل معنّى في قاعة المحكمـة. وكانت زوجته تشتري بثمن فاحش، حشيشة من دجال متسول، قيل أنها تكفل لهـا ولادة طفل وإذا بتحية تسمع في الباحة. فخرج أونوكل ليـرى مـن هنـاك، وإذا بريشاران. فرقّ قلب أونوكل لخادمه العجوز، وراح يسأله عن حاله، ثم عـرض عليه أن يستعيده لخدمته.

فابتسم ريشاران بوهن وأجاب: "أريد أن أمتثل أمـام سـيدتي". فرافقـه أونوكل الى داخل المنزل، ولكن السيدة لم تستقبله بحرارة كما استقبله سيده. فلـم يبال ريشاران، بل عقد ذراعيه وقال: "لم يكن البادما من سلبك طفلك يا سـيدتي . انه أنا الذي فعل".

وهتف أونوكل: "أيها الإله العظيم! ايه! ماذا! أين هو؟".

وأجاب ريشاران: "انه معي. وسأحضره بعد الغد".

كان النهار يوم أحد. ولم يكن هناك جلسة في قاعة المحكمة. وراح الحاكم وزوجته منذ الغداة يرقبان الطريق وينتظران بفروغ صبر ظهور ريشاران. وعند الساعة العاشرة وصل يقود فيلنا من يده.

وبغير سؤال ضمت زوجة أونوكل الصبي الى حجرها وقد تملكها اهتياج عنيف، فهي تارة تضحك، وطورا تبكي وهي تلمس الصبي، وتقبل شعره وجبهته وتحملق في وجهه بعينين نهمتين مشوقتين. وطفح قلب أونوكل بموجة من العاطفة، ولكن طبيعة الحاكم في نفسه أخذت تسأل "ألديك أية براهين؟"

فقال ريشاران : "ايمكن أن يكون هناك برهان على فعلتي؟ ان الله وحده يعلم أنني سرقت طفلك، وليس أحد غيري في هذا العالم".

ولما رأى أونوكل شغف زوجته وتعلقها بالصبي، أدرك عبث المطالبة بالبراهين. فمن الحكمة أن يصدق. والى هذا- أنّى لشيخ كريشاران أن يحظى بمثل هذا الصبي؟ ولم يخدعه خادمه الأمين في سبيل لاشيء؟

ولكنه أضاف بصرامة: "ريشاران، يجب أن لا تبقى هنا".

وسأل ريشاران بصوت مختنق وقد عقد ذراعيه: "الى أين أذهب يا سيدي؟ من يلحق شيخا مثلي في خدمته؟"

فقالت السيدة: "ليبق هنا. فسيغتبط به طفلي. انني أصفح عنه".

ولكن ضمير أونوكل القانوني لم يسمح له أن يستبقيه فأجاب: "كلا، لايمكن أن يغفر له ما جنته يداه."

فركع ريشاران على الأرض وضم قدمي أونوكل وهتف:

- "يا سيدي، اسمح لي أن أبقى. لست أنا الذي فعل هذا. انه الله".

واستاء ضمير أونوكل أبلغ استياء إذ حاول ريشاران أن يلقي اللوم على منكبي الإله فقال: "كلا. ليس بوسعي أن اسمح لك. انني لا أستطيع أن أثق بك بعد اليوم. انك أقدمت على خيانة نكراء."

فانتصب ريشاران على قدميه وقال: "لست أنا من فعل هذا."

وسأله أونوكل: "ومن اذن؟"

فأجاب ريشاران: "انه قدري".

ولكن.. ليس من رجل مثقف يقبل بمثل هذا العذر. ولهذا أصر أونوكل على عناده.

ولما رأى فيلنا أنه ابن الحاكم الثري، وليس ابن ريشاران، غضب أول الأمر إذ ظن أنه خدع طوال الوقت في حقيقة مولده. ولكنه إذ رأى ريشاران في انكساره عطف قلبه وقال لوالده بشهامة: "اصفح عنه يا والدي. وحتى لو لم تشأ أن يبق بين ظهرانينا، فاجر عليه معاشا شهريا ضئيلا".

ولما سمع ريشاران هذا القول، لم ينبس ببنت شفة. وحدق للمرة الأخيرة في وجه ابنه؛ وقدم خضوعه لسيده القديم وسيدته، وترك المنزل ليختلط بجماهير لا تحصى من الناس في العالم.

وفي نهاية الشهر أرسل أونوكل اليه في قريته شيئا من المال، ولكن النقود عادت اليه. فلم يكن هناك أحد يدعى باسم ريشاران!..

* * *